أنـــا والإذاعة . . .

للأســـتاذ علي الطنطاوي

[أذيعت من محطة إذاعة دمشق يوم الأربعاء ١٥ — ٨ — ١٩٤٦] .

أيها السادة :

إني أشكو إليكم القائمين على هذه المحطة ، فقد ظلموني وظلموكم معي . جاءوا بي لأحدثكم ، فحسبت أني سأدخل نادياً فيه ناس أراهم ، فأخاطبهم على قدر عقولهم ، فإن كانوا علماء كلمتهم كلام العلماء ، وإن كانوا من العامة خاطبتهم خطاب العامة ، فإذا هم يصعدون بي درجاً بعد درج حتى إذا كلّت رجلاي من الصعود ، وهممتُ بالرجوع ، قالوا : قد وصلنا ، فنظرت فإذا نحن في أعلى طبقة من (عمارة البرق والبريد) ، فتلفتُّ أنظر أين النادي الذي سأخطب فيه ؟ فما عهدت نادياً يبنى على رأس مئذنة ! وأين الناس ؟

وإذا هم يدخلونني من دهليز إلى دهليز ، حتى انتهيت إلى زاوية مظلمة ، فأشاروا إلى باب ، وقالوا : (هُسْ) ، إياك أن تتكلم ، أو تعطس ، أو تسعل ، أو تخبط برجلك ، أو تدق بيدك ، أو تُخَشْخِش[1] بأوراقك ...!

فقلت : فكيف إذن أتحدث ؟ أتريدون أن يكون حديثي إيماء وإشارة من غير كلام على لغة الخرسان ؟

قالوا : لا ، ولكن إذا جاء دورك تكلمت

وفتح الباب ، ودخلنا إلى غرفة صغيرة كأنها الصندوق المقفل ، لا شباك ولا باب ولا نافذة ولا كوّة ولا شقّ لدخول الهواء ، ورأيت فيها مكتباً ما عليه إلا علبة قائمة على عمود من الحديد ووراءها مرآة ، وقد وقف أمامها شاب يصوّت أصواتاً بعضها يخرج من حلقه وبعضها من صدره وبعضها من بطنه ، ويتخلّع ويتلوّى مع النغمات ، وقد يأتي بكلمات يلقيها إلقاء بلا نغم ، ووراءه رفاق له يضربون بأعوادهم ويزمّرون ، فأجهدت ذهني خمس دقائق كاملات لأعرف ما ذا يصنع هذا الرجل : أيغني أم يخطب ، أم هو مصروع معتوه يخلّط ، أم يتكلم بلسان أهل مالطة ، فلم أهتد إلى حقيقته ، ثم سكت ، وتقدم من العلبة أحد موظفي المحطة فقال : لقد انتهت الحفلة الموسيقية ...

فقلت : إذن هي حفلة موسيقية ؟ !

سبحان القادر على كل شيء !

وأقبل الموظف عليّ ، فأشار بيده إلى حيث كان يقف الشاب صاحب الأصوات المختنقة ، فقلت : ما ذا ؟ أأعمل أنا أيضاً حفلة موسيقية ؟

قالوا : هسْ ! هسْ !

وأدار مفتاحاً كمفتاح الكهرباء ، وجعل يكلمني بلسانه بعد أن كان يتكلم بيديه . وقال : تفضل يا أستاذ ، اقعد وتكلم !

قلت : أتكلم مع من ؟ أين الناس ؟ أين المستمعون ؟ ! .

قال : تكلم هنا ... وأشار إلى العلبة

قلت في نفسي : أعوذ بالله من شر هذه الغرفة ! لقد حسبتها سجناً مغلقاً ، فإذا هي مارستان ! أأكلم علبة ؟ أمجنون أنا ؟ ونظرت في المرآة فوجدت صورتي متغيرة ... أهذا أنا ؟ وأنعمت النظر ، فإذا التي حسبته مرآةً لوحُ زجاج بيننا وبين الغرفة الأخرى ، فنحن نرى من فيها ، ولكن لا نسمع أصواتهم ،

فاجتمعت عليّ هذه الليلة المتناقضات : هنا أشخاص أراهم ولا أسمع أصواتهم ، وهنالك صندوق تخرج منه أصوات أسمعها ولا أرى أهلها ، وبحثت عن مهرب فلم أجد ، وفتشت عن نصير فلم ألقه ، وما حولي إلا شباب جدد ، وموسيقيون معهم أعوادهم ، وأنا الشيخ ... الوحيد ... في هذه العصبة ، بعمامتي و ... وكنت أقول ، ولحيتي ، ثم ذكرت أني تركت اللحية عند الحلاق ... !

فاستسلمت للمقادير ، وقعدت ، والعرق يسيل على عنقي ووجهي ، وشرعت أكلم العُلبة كالمجانين ، خوفاً من أن يحل بي هذه الليلة ما هو أعظم !

نعم ، لقد ظلمت ، أيها السادة ، وظلمتم معي ، لأن أكثركم يؤثر (عتابا) بلدية ، أو (قرّادية) نعدة ، أو أغنية شاكية باكية ، ميتة مميتة ، لا شرقية ولا غربية ... من أغاني عبدالوهاب

---

(١) من الفاصح الفصيح

على كل ما في الدنيا من محاضرات ، ولكنكم تستطيعون أن تديروا مفتاح الرادّ ، فتتخلصوا مني ومن محاضرتي ، وتبعثوا إليّ بما يوحيه إليكم نبلكم وكرمكم من الشتائم واللعنات التي لا أسمع منها شيئاً ، ولكن المصيبة عليّ أنا ، لقد حُبست في مارستان ، لا أخرج منه حتى أكلم علبة من حديد ربع ساعة لا تنقص ثانية ولا تزيد !

فلنستمن بالله ، ولنتحدث ...

ولكن خبروني أولا : هل تسمعون كلامي حقيقة ؟ !

أما أنا فلا أصدق أنكم تسمعون مني ، وكيف يسمع من هو في المهاجرين وحمص وحلب والقاهرة وطهران ما لا يسمعه هذا الأخ الجالس أمامي وراء الزجاج ، والذي يبدو عليه أنه لا يدري ما ذا أقول ، فلا يبتسم ، ولا يعبس ، ولا يفتح عينيه ، ولا يرفع حاجبيه ، ولا يصنع شيئاً يدل على أنه سامع ، وهذا من نعم الله عليّ ، فلو سمعني أتكلم عنه لما نجوت منه بسلام !

فإذا كنتم تسمعون (يا سادة) كلامي ، فأشيروا إليّ ، أو صفقوا ، أو قربوا أفواهكم من (الرادّ) وصيحوا — إني انتظرت فلم أسمع صيحتكم ، فلم يبق إلا أن أصنع كما صنع زميلنا المحترم (جحا) ، حين أذّن ونزل من المنارة يعدو ، قالوا : إلى أين يا جحا ؟ قال : أريد أن ألحق صوتي فأنظر إلى أين وصل ؟

ولنفرض أنكم سامعون ، فبمّ أحدثكم ؟ ومن لي بالحديث الذي يرضيكم جميعاً : العالم منكم وغير العالم ، والرجل والمرأة ، والكبير والصغير ، وأي معلم يستطيع أن يلقي درساً واحداً يفهمه تلميذ المدرسة الأولية وطالب الجامعة ومن بينهما ويرضون عنه ويعجبون به .

لقد فكرت طويلا ، وحشدت قوى نفسي كلها ، وما تعلمت من علم وما حفظت من مسائل ، لآتيكم بحديث يدهشكم حتى تقولوا : ما شاء الله كان ! ما هذه المحاضرة ؟ شيء عظيم جداً ، ولكني لم أستقر على موضوع ...

قلت : الدنيا الآن في رمضان ، وخير الأحاديث حديث الدين ، وما أسهل الكلام في الدين في هذه الأيام وما أيسر أن يجعل المرء نفسه مجتهداً ، وأن يرى الرأي المخالف لأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل والليث بن سعد والأوزاعي ، وكل مجتهدي الأرض فيتمسك به ويخطّئ المخالفين له : من كان منهم ومن سيكون إلى يوم القيامة . ولم لا ؟ إنه رجل وهم رجال ، والساعاتي والنجار والموسيقي رجال أيضاً ، فلما ذا لا يكونون أئمة مجتهدين ، ما دام العلم بالعربية نحوها وصرفها وبلاغتها ، والفقه أصوله وفروعه ، والتفسير والحديث ليس شرطاً في الاجتهاد؟

وما دامت الحكومة تمنع غير الطبيب أن يكتب صفة دواء ، وغير المهندس أن يرسم مصور بناء ، وتدع من شاء يتكلم في الدين والأدب بما شاء ؟ وما دام كل ما يحتاجه الرجل في هذه الأيام ليكون واعظاً مرشداً يقتدى به ويستمع لقوله ، وتقبل يده ويُتمسحُ بذيله ، أن يمرّض لحيته ، ويكوّر عمته ، ويوسع جبته ، ويطوّل سُبحته ، ويتكلم كلاماً تقبله العامة ، ولو خرّف وخلّط وضلّل ، وأكل الدنيا بالدين ، واستغل غفلة الغافلين ، لا يسأله سائل عما يفعل أو يقول !

لا ... لن أتكلم في الدين ، فالكلام فيه شديد الخطر ، فأنا أخشى أن أقول الحق فأغضب الناس ، أو أقول الباطل فأسخط الله . ثم إني طلبت الليلة مرضاة السامعين ، وأكثر السامعين لجهلهم بالدين ، ولطول ما رأوا من أدعياء العلم فيه ، منصرفون عنه زاهدون في حديثه ، حتى الأتقياء الصالحون منهم ، الذين يتمسكون في رمضان بدينهم ، فيقضون نصف النهار في (الأموي) نائمين يشخرون وينخرون[1] أو متحلقين حلقاً يمزحون في الجامع ويضحكون ويكذبون ويغتابون !

فلنتكلم في الأدب ، فالأدب أسلم عاقبةً ، وأوسع حريةً ، وهو هيّن عليّ وعلى غيري ، وقد صار الأدب الآن كوصل ليلى كلٌّ يدّعيه ، وكل من يستطيع أن يكتب كلاماً في ورقة ، ويجد صفافاً يصفُّ له حروفه ، وصاحب جريدة ينشره ، فهو كاتب بليغ ، وكل من يأتي بلفظ موزون أو شبه موزون فهو شاعر مُفلق ، وكل من يحفظ خبراً من أبي تمام والمتنبي ، أو هوغو ولامارتين ، أو شكسبير وملتون[2] ، فهو أديب أريب ، وكل من عاب كاتباً كبيراً بحق أو بباطل فهو ناقد محقق ، ومن عجز من أن يفكر كما يفكر أبناء آدم عليه السلام ، ويتكلم كما

(١) من النائي الفصيح .
(٢) لأن المودة تحولت بعد الجلاء من باريس إلى لندن